مصطلحا الشاهد والاستشهاد

المفهوم، والأنواع، والوظائف

الدكتور الصالحي عبد الرزاق*

إن الحديث عن الشاهد أو عن قضية الاستشهاد أمر شائك ومتشعب، وعلى قدر كبير من الأهمية في القديم والحديث في ثقافتنا العربية الإسلامية، لما يمثله بحث الشواهد والاستشهاد من فرصة لمساءلة المتون وتأملها، شعرية كانت أو نقدية أو تفسيرا أو حديثا غيرها من أجناس الخطاب، وأيضا لاعتبار الخوض في قضايا الاستشهاد بابا لمقاربة التصورات النظرية التي أسست على بينة منه، وللوقوف على منهج أو مناهج الاستشهاد في المؤلفات العربية القديمة، وعلى المحكمات أو المعايير الشرعية والعلمية والعرفية أو غيرها التي حكمت عملية الاستشهاد، ما من شأنه إضاءة جوانب كثيرة وفسيحة من ضروب التأليف عند العرب بحسب المجالات المعرفية، وكذا بيان الخصوصيات الذاتية العربية في فن الاستشهاد.

ولتبين هذا الجانب الثقافي من نتاج العقل العربي سوف أقف عند بعض الملامح من معالم درس الاستشهاد دون السعي إلى استقصاء كل ضمائمه لصعوبة الموضوع وتشابكه، وأقصر كلمتي هذه على عنصرين هامين في الدرس الاستشهادي هما: المجال اللغوي والاصطلاحي، ثم الإشارة إلى بعض أنواع الشاهد ونعوته ووظائفه.

1 – المجال اللغوي والاصطلاحي:

هنا لا بد من التعريف بالمكوّن، وهو الشاهد، وبالمكوّن وهو الاستشهاد لما بينهما من رباط بنيوي، فالأول آلة والثاني عملية موظفة لتلك الآلة.

أ – الشاهد:

إن تتبع لفظ الشاهد بمادته (ش هـ د) يخلص إلى نتيجة عامة هي التنوع والاختلاف والتعدد ما يشي بتطور الدلالة من زمن إلى زمن ومن مجال معرفي إلى آخر.

---

* كلية الآداب ظهر المهراز ـ فاس.

فشهد في أصل اللغة تدل على الحضور والعلم والإعلام -- كما في مقاييس اللغة لابن فارس [1] لذلك قيل « الشاهد: الحاضر» [2] كما قيل «الشاهد: العالم الذي يبين ما عمله »[3].

هذه المعاني الثلاثة هي الأصل في وضع الخطاب اللغوي، ثم توالت الاستعمالات بدلالات أخرى متعددة ومختلفة، قد تقترب من الأصل وقد تبعد عنه، حيث نقف على الدلالات التالية للشاهد:

أ – **اللسان:** « من قولهم: لفلان شاهد حسن وعبارة جميلة » [4].

ب – **النجم:** « روى شمر في حديث أبي أيوب الأنصاري: أنه ذكر صلاة العصر ثم قال: ولا صلاة بعدها حتى يرى الشاهد. قال: قلنا لأبي أيوب: ما الشاهد؟ قال: النجم كأنه يشهد في الليل أن يحضر ويظهر.» [5] .

ج – **الزوج:** قال الصاحب بن عباد (ت 385 هـ): « امرأة مشهد: زوجها: شاهد» [6]، والمقصود الزوج الحاضر، والمرأة المشهد: التي حضر زوجها وعكسها المغيبة، فإنهاالتي غاب عنها زوجها كما هو واضح في تاج العروس(شهد).

د ــ « الذي يخرج مع الولد كأنه مخاط » [7].

ه ــ أول سير الدابة: قال الصاحب: « شاهد الدابة: أول سيرها » [8].

و ــ « ما يشهد على جودة الفرس وسبقه وجريه» [9]ويراد به ما يظهر عليه من بذل الجهد وإخراج كل طاقته وقوته لتحصيل الجري الشديد. وعلى هذا النحو« فسره ابن الأعرابي: وأنشد لسويد بن كراع في صفة ثور:

---

1 ــ مقاييس اللغة (شهد).

2 ــ لسان العرب (شهد) وينظر جمهرة اللغة (شهد)

3 ــ نفسه وينظر تاج العروس (شهد).

4 ــ مقاييس اللغة ــ لسان العرب(شهد).

5 ــ لسان العرب(شهد).

6 ــ المحيط في اللغة باب الهاء والشين(شهد).

7 ــ لسان العرب(شهد).

8 ــ المحيط في اللغة باب الهاء والشين(شهد).

9 ــ تاج العروس(شهد).

ولو شاء نجاه فلم يلتبس به له غائب لم يبذله وشاهد

وقال غيـــــره: شاهده بذله جريه، وغائبه: مصون جريه » [1].

وكما يبدو من خلال هذه العناصر – خلا عنصر دال – فإن دلالات الشاهد لا تبتعـــد عن دلالات العلم والحضور في مقابل الغياب، فحسن اللسان مستبطن للعلم والبقية تـــستبطن الحضور والتواجد من خلال حركتي السير والجري.

ز – **السرعة**: « فالشاهد من الأمور: السريع ». [2]

ح ـــ **المخبر: مطلقا أو المخبر بالخبر القاطع** – كما في صحاح الجوهري – لأنه قال: « الشهادة خبر قاطع »[3]، والدليل على هذا الفهم ما نقله صاحب التعاريف قال: «والشهادة: إخبار عن عيان بلفظ أشهد في مجلس القاضي بحق لغيره على غيره. والإخبارات ثلاثة : إما بحق الغير على آخر، وهو الشهادة، أو بحق للمخبر على آخر، وهو الدعوى، أو عكـــسه، وهـــو الإقرار. وقال الراغب: الشهادة قول صادر عن علم حصل بمشاهدة بصر أو بصيرة. » [4].

وفي اللســـان: « وشهد الشاهد عند الحاكم: أي بين ما يعلمه و أظهـــره » [5] والإظهار إخبار.

أما في المجال الديني عامة والدين الإسلامي خاصة، فإن الباحث يقف على تطور هائل في المفهوم صاحب المعطى الديني الإسلامي الجديد على العرب.

وهكذا نجد الشاهد في العصر الجاهلي – إضافة إلى استعماله في أصل اللغة – يـــدل في الاعتقاد على الملك. قال ابن منظور: « والشاهد الملك. قال الأعشى:

فلا تحسبني كافرا لك نعمة على شاهدي ياشاهدا لله فاشهد»[6].

---

[1] ـــ نفسه.

[2] ـــ المحيط في اللغة ـــ تاج العروس(شهد).

[3] ـــ الصحاح(شهد).

[4] ـــ التعاريف (التوقيف على مهمات التعاريف) 439/1.

[5] ـــ لسان العرب(شهد).

[6] ـــ لسان العرب وينظر مقاييس اللغة (شهد).

وقد علق ابن قتيبة على البيت بعد أن أشار إلى أن الأعشى كان «ممن أقر بالملكين الكاتبين في شعره » قال: « قوله على شاهدي: يريد على لساني. يا شاهد الله: يريد الملك الموكل به. وكان هذا من إيمان العرب بالملكين بقية من دين إسماعيل صلى الله عليه وسلم »[1]. ولقد أبقى الإسلام على هذا المعنى. « قال مجاهد: ويتلوه شاهد منه أي حافظ ملك »[2]، وإن كان هناك من ذهب إلى أن معنى الشاهد في الآية: اللسان. جاء في تفسير الطبري: « حدثنا بشر قال ثنا يزيد قال ثنا سعيد عن قتادة عن الحسن: قوله: " ويتلوه شاهد منه " قال: لسانه.

حدثنا محمد بن عبد الأعلى قال: ثنا محمد بن ثور عن معمر عن قتادة: ويتلوه شاهد منه " قال: لسانه هو الشاهد»[3] .

كما ذهب آخرون إلى أن المعني بقوله " شاهد منه " محمد صلى الله عليه وسلم ، واستشهدوا لذلك بتفسير الحسين بن علي للآية. قال: " الشاهد: محمد"[4]، كما قيل إن قوله تعالى « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوا شاهد منه» على قسمين: الأول وهو من كان على بينة من ربه وهو الرسول صلى الله عليه وسلم والثاني الشاهد منه الذي يتلوه فهو القرآن، لأنه شاهد من الله بأنه رسول الله [5] ونقل عبد الرزاق الصنعاني في تفسيره من طرق عدة أن الشاهد في الآية هو جبريل عليه السلام كقوله عن معمر أن الكلبي قال: « جبريل شاهد من الله »[6] كما أطلق الشاهد عند المسلمين وأريد به غير ما تقدم، ويمكن الإشارة في هذا الصدد إلى أن الشاهد هو:

أ – **اسم من أسماء النبي صلى الله عليه وسلم**، كما دل عليه ما تقدم من بعض تفسير الآية السابقة، وكما جاء في تاج العروس: « الشاهد من أسماء النبي عليه الصلاة والسلام. قال الله عز وجل: " إنا أرسلناك شاهدا "، أي على أمتك بالإبلاغ والرسالة »[7].

---

[1] ــ الشعر والشعراء 266/1.

[2] ــ تاج العروس(شهد).

[3] ــ تفسير الطبري 15/12.

[4] ــ نفسه.

[5] ــ نفسه.

[6] ــ تفسير القرآن 303/2.

[7] ــ تاج العروس(شهد).

ب – **المبين:** كما قيل في تفسير قوله تعالى: « إنا أرسلناك شاهدا » أي مبينا [1].

ج – **الموحد:** كما يفهم من قول ابن قتيبة في تعليقه على بيت الأعشى السابق ذكره في كتابه " المعاني الكبير"، قال: « شاهدي: لساني، وشاهد الله: من يشهد ألا إله إلا الله . ويقال: الملك الموكل به.» [2].

د – المعلم والمقر والحكم أو الحاكم والمحلف أو الحالف المقسم بيمين والموصي: وكلها نجدها في تفسير القرطبي لقوله تعالى من سورة يوسف « وشهد شاهد من أهلها » قال: «ورد شهد في كتاب الله تعالى بأنواع مختلفة: منها قوله: "واستشهدوا شهيدين من رجالكم" قيل: معناه أحضروا، ومنها شهد بمعنى قضى أي أعلم: قاله أبو عبيدة كقوله تعالى " شهد الله أنه لا إله إلا هو"، ومنها شهد بمعنى: أقر، كقوله تعالى " والملائكة يشهدون". ومنها شهد، بمعنى حكم، قال الله تعالى " وشهد شاهد من أهلها". ومنها شهد، بمعنى حلف، كما في اللعان، وشهد، بمعنى وصى، كقوله تعالى: " يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم " وقيل معناها هنا الحضور للوصية ... وضعف كونها بمعنى الحضور» [3]. وفي تفسير القرطبي أيضا « فشهد شاهد من أهلها أي حكم حاكم من أهلها»[4]، ويمكن أن نحمل الشاهد في الآية على معنى (حكيما) استنادا إلى بعض التفسيرات التي عرفت الشاهد في الآية بأنه رجل حكيم ذو فهم من أهل امرأة العزيز، أو من مستشاري الملك[5]. كما أطلق الشاهد وأريد به أياما معلومات ذات صبغة دينية فقيل:

أ – **يوم الجمعة:** نقل ذلك الفيروزبادي في قاموسه قال:« والشاهد: يوم الجمعة»[6].

ب – **يوم القيامة:** قال ابن منظور: « ويقال أيضا : الشاهد يوم القيامة » [7].

---

[1] ـــ تاج العروس(شهد).

[2] ـــ المعاني الكبير في أبيات المعاني ص : 547/1 .

[3] ـــ تفسير القرطبي347/6ـــ 348.

[4] ـــ نفسه172/9 وينظر مثله في الدر المنثور525/4 .

[5] ـــ ينظر هذا في تفسير القرطبي والدر المنثور وفي غيرهما.

[6] ـــ القاموس المحيط(شهد).

[7] ـــ لسان العرب(شهد).

كما أريد به أيضا صلوات بعينها فقيل الشاهد هو صلاة المغرب وقيل صلاة الفجر، ففي تهذيب اللغة للأزهري: « والشاهد: صلاة المغرب، لاستواء المسافر والمقيم فيهـــا، لأنهـــا لا تقصر»[1].

ورد على هذا التعليل بصلاة الفجر فهي أيضا لا تقصر، ويستوي فيها المسافر والمقيم[2].

وذهب أبو أيوب – فيما نقله صاحب التاج – إلى أن هذه التسمية راجعة إلى الـــنجم، لأن صلاة المغرب تحضر في وقت تبصر فيه نجوم السماء، ومنه قيل لها صلاة البصر، لأن البصر يدرك وقتها رؤية النجم[3].

وفي أن المراد بالشاهد صلاة الفجر نقل صاحب التاج أيضا أن صلاة الشاهد هـــي الفجر « لأن المسافر يصليها كالشاهد لا يقصر منها »[4].

هكذا نخلص ـــ بعد هذا السفر الطويل في المعاجم وكتـــب التفـــسير والأدب ـــــ إلى ملاحظة ذلك التحول الكبير والتنوع الذي حظي به لفظ " الشاهد " بتأثير من الدين الجديد ولغة القرآن الكريم التي تفتح الألفاظ ـــ في الكثير من السياقات ـــ على الكثير من الاحتمالات والأوجه.

أما في اصطلاح العربية « فالشاهد عند أهل العربية » كما يقرر التهانوي في كـــشافه هو: « الجزئي الذي يستشهد به في إثبات القاعدة لكون ذلك الجزئي من التنزيل أو من كلام العرب الموثوق بعربيتهم؛ وهو أخص من المثال»[5]؛ فقوله الجزئي[6] يراد به ما اجتزأ من كلي، دل عليه التقسيم الموالي (التنزيل وكلام العرب)، فيكون الجزئي هو الآية من القرآن، وما دل على كلام العرب الموثوق بعربيتهم، كالقصيدة من الشعر، والمقطعة منه، وما اجتزئ منـــها:

---

1 ـــ التهذيب(شهد) وينظر القاموس المحيط(شهد).

2 ـــ نفسه.

3 ـــ تاج العروس(شهد).

4 ـــ نفسه.

5 ـــ كشاف اصطلاحات الفنون: 778/3.

6 ـــ الجزئي" هو ذلك الاسم الذي يطلق على شيء واحد معين أو اللفظ المفرد الذي لا يصلح معنـــاه لأن يشترك فيه أفراد كثيرة ... أو هو الذي يقصد به الدلالة على وحدة معينة فقط" المنطق ومناهج البحث العلمي في العلوم الرياضية والطبيعية . د علي عبد المعطي محمد ص: 67.

كالبيتين والبيت والشطر، وما دون ذلك أو أكثر، أو كل منثور من كلامهم مجتزأ من كلي، كالحكمة والمثل.

وقوله " الموثوق بعربيتهم " شرط صحة في قبول هذه الأجزاء الشواهد، اقتضى أن عدم الوثوق شرط نفي، ورفض للشهادة أو الاستشهاد، لكن التهانوي سكت عن بيان هذا الشرط وحدوده .

وأما قوله « وهو أخص من المثال » فإقحام لمصطلح آخر، بدا من علاقة الخصوصية أنه ذو صلة بالشاهد، أبان عنها ورسم الحدود الفاصلة بين المصطلحين قوله معرفا المثال: « المثال يطلق على الجزئي الذي يذكر لإيضاح القاعدة،لإيصاله إلى فهم المستفيد، كما يقال: الفاعل (كذا) ومثاله : (زيد) في (ضرب زيد) ، وهو أعم من الشاهد» [1]؛ فظهر أن المثال يشمل الشاهد وغيره، وأن كل شاهد مثال وليس كل مثال شاهدا. وإلى هذه النتيجة خلص محمد شكري الألوسي في قوله: « اعلم أن المثال هو الجزئي الذي يذكر لإيضاح القاعدة وإيصالها إلى فهم المستفيد ولو بمثال جعلي، وأن الشاهد هو الجزئي الذي يذكر لإثبات القاعدة كآية من التنزيل أو قول من أقوال العرب الموثوق بعربيتهم، فالفرق بينهما بالعموم والخصوص المطلق. فإن كل ما يصلح شاهدا يصلح مثالا من غير عكس كلي، إذ لا يلزم أن يكون الجزئي مذكورا بعد الحكم الكلي فضلا عن كونه مثالا أو شاهدا، فكونه مذكورا للإيضاح أو للإثبات عارض مفارق لا يمكن اعتباره في حقيقتهما ولو اعتبر ذلك فربما يتباينان وربما يتصادقان، فبينهما على التقدير تباين جزئي ». [2]

إن التهانوي يفرق بين المصطلحين باعتبار الوظيفة، فيقرر أن الشاهد للإثبات، والمثال للإيضاح، والإيصال، فللأول وظيفة تقريرية، وللثاني وظيفة بيانية موجهة إلى المتلقي، وموجهة له. وإذا ما تأملنا وجوه العلاقة بين المصطلحين، بدا لنا أن وظائف كل مصطلح ليست قارة أو خاصة على إطلاق، بل قد يجوز القصد بالشاهد إلى الإثبات والإيضاح والإيصال جميعا، بدليل أن كل شاهد مثال؛ فبان أن ما يجوز في المثال من وظائف، يجوز في الشاهد، بشرط انتفاء الصناعة، لكن لا يسمح بالقصد بالمثال إلى الإثبات بإطلاق وبدون قيد، لأن المثال قد يكون

[1] ــ كشاف اصطلاحات الفنون1341/6.

[2] ــ إتحاف الأمجاد في ما يصح به الاستشهاد ــ ص: 60ــ 62.

مصنوعا فلا يقوم حجة أو دليلا على ثبوت قاعدة، وهذا حكم نستشفه من قوله في تعريف المثال:« الفاعل(كذا)ومثاله (زيد) في(ضرب زيد) ».

إن المثال شاهد بالنيابة، أي أنه يقوم مقامه، من حيث دلالته على الممثل له (المستشهد له في الأصل)، فوظيفته ـــ في مستوى ثان غير التمثيل ـــ هي الاستدلال والاحتجاج والبرهنة غير المباشرة لاعتبار نيابته عن الشاهد الحق أو الأصل.

لكن يبدو أن المجالات التداولية، عبر مراحل متلاحقة، قصرت الشاهد ـــ بوظيفته الإثباتية ـــ على الشعر المنتمي إلى زمن التوثيق البعيد عن الاختلاق والصناعة، بينما قصرت المثال ـــ بوظيفتيه البيانية والتواصلية ـــ على زمن ما بعد التوثيق، وعلى ما كان خارج حصن الموثق من كلام العرب في القديم والحديث، كما ربطت بينه وبين فاعلية الصناعة، فكأن الشاهد منظوم لغير نية الاستشهاد، والمثال مصنوع لنية التمثيل. على أن الحكم في ميداني النقد والبلاغة صار إلى عدم الاكتراث بالفروق، فجمح نقاد القرن السابع والثامن الهجريين ـــ مثلا ـــ إلى إلغاء الحدود بين المثال والشاهد الشعريين.

وبالعودة إلى تأمل نصي التهانوي نفهم أن مصادر الاستشهاد هي عينها مصادر التمثيل، باعتبار علاقة العموم، خلا المصنوع من الكلام، فهو من خصوصيات المثال. ويظهر لنا من قراءة أولية في النص الأول، ولدى الوقوف عند مصادر الاستشهاد، سكوت التهانوي عن الإشارة إلى الحديث النبوي الشريف، ونكون بذلك بإزاء إبعاد الاستشهاد به انسجاما مع موقف مجموعة من العلماء في رفضهم اعتماد الحديث النبوي شاهدا على مسألة لغوية أو نحوية، لأنه في أغلبه مروي من رواة لا يستبان من روايتهم أهو لفظه صلى الله عليه وسلم ومعناه أم هو المعنى دون اللفظ. غير أن تعبير التهانوي بلفظ التنزيل ربما أشكل بعض الإشكال، وفسح الخاطر أمام التأويل؛ ذلك أن التنزيل مفاده ما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وإذا كان القرآن منزلا، لا شك فيه، فإن الحديث المروي بلفظه صلى الله عليه وسلم ومعناه، لا شك، منزل أيضا، وإن لم يسم قرآنا، لأنه صلى الله عليه وسلم لاينطق عن هوى، وإنما عن وحي يوحى به إليه، دل على ذلك النص القرآني نفسه وبعض أحاديثه صلى الله عليه وسلم. كما أنه إذا كانت الوثوقية تعني كل ما نطق به العربي الفصيح المنضبط بشروط عصور الاحتجاج، فالنبي ورواة حديثه ممن يقبل تلك الشروط.

فبان من هذا كله أن « كلام العرب الموثوق بعربيتهم » يراد به حديثه صلى الله عليه وسلم وشعر العرب وكلامهم المنثور.

ب – الاستشهاد:

الاستشهاد بلفظه غير معرف في المعاجم لغة، وغير معرف فيها اصطلاحا، لكنه مستعمل، ومعه الفعل " استشهد " على جهة الاصطلاحية النقدية والشرعية [1] على أن إرجاعه إلى أصل مادته يجعلنا نقول إن المراد به لغة الاستحضار أخذا من الحضور وهو أحد استعمالاته الأصلية وعليه قول الله تعالى: « واستشهدوا شهيدين من رجالكم » [2]، ومعناها أحضروا شاهدين من رجالكم.

أما في الشرع فهو الموت في سبيل الله، ومنه قيل الشهيد. جاء في لسان العرب:

« استشهد فلان: قتل شهيدا. والشهيد: جمعه شهداء، المقتول في سبيل الله، وهو الحي، وأيضا المبطون، والمطعون، والغريق، والمحرق » [3].

أما في اصطلاح البديع فله معان ثلاثة أولها ذكره العسكري في باب حديثه عن التأكيد المولد لمعنى مكمل لمعنى السياق قال: « وهذا الجنس كثير في كلام القدماء والمحدثين، وهو أحسن ما يتعاطى من أجناس صنعة الشعر، ومجراه مجرى التذييل لتوليد المعنى، وهو أن تأتي بمعنى تؤكده بمعنى آخر يجري مجرى الاستشهاد والاحتجاج»[1]. فالاستشهاد عند العسكري يراد به الاستشهاد الصناعي، وليس القائم على الاستدلال على قواعد أو نظريات في اللغة والنحو والبلاغة وغيرها بشواهد شعرية ونثرية. إنه تعليلات ومبررات معنوية تجيء في سياق الاحتجاج والبرهنة على موقف أو حالة أو معنى من معاني أغراض الشعر لتعزيزها وبيان المقصد من تبنيها واعتمادها، كما هو موقع في قول أبي تمام الذي استشهد به العسكري:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدا لأول منزل

[1] ــ ينظر في هذا الباب الصحاح وتاج العروس والمحيط في اللغة ولسان العرب وتهذيب اللغة والعين...

[2] ــ سورة البقرة الآية 281. 3 لسان العرب(شهد).

[3] ــ كتاب الصناعتين(الفصل الحادي والثلاثون في الاستشهاد والاحتجاج)ــ ص:416 .

فالبيت الثاني شاهد بصحة معنى البيت الأول، يجري مجرى العلة والحجة لموقف الشاعر في الحب يدل على سلامته وصوابه ويبعد عنه الغرابة والعجب.

والثاني ذكره النويري في" نهاية الأرب" قال: « وأما ما يتصل بذلك من خصائص الكتابة: فالاقتباس والاستشهاد والحل» [1] ثم عرف الاستشهاد فقال: « وأما الاستشهاد بالآيات: فهو أن ينبه عليها، كقول الحريري: فقلت وأنت أصدق القائلين: "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين" ونحو ذلك، وفي الأحاديث بالتنبيه عليها أيضا» [2]، فلم يذكر الاستشهاد بالشعر ولا بكلام العرب.

والثالث ذكره ابن حجة الحموي في كتابه " بلوغ الأمل في فن الزجل " فعرفه بأنه «ذكر الإنسان اسمه في آخر زجله». قال متحدثا عن فن الزجل « وإنما عوام المتأخرين ابتدعوا ذلك، وأقاموا لهم قواعد هذه من جملتها، كابتداعها... ذكر الإنسان اسمه في آخر زجله، ويسمونه الاستشهاد »[3].

وقد يستعمل الاستشهاد في بعض كتب التفسير ويراد به الرواية والإنشاد – كما في تفسير الطبري [4] ومعاني القرآن للفراء [5] ــ أو القول – كما في مجاز القرآن لأبي عبيدة ــ [6].

وقد يستعمل ويراد به ما قيل من أشعار في معان معينة أو أغراض معينة كما نلحظ من صنيع أبي منصور الثعالبي في كتابه "ثمار القلوب في المضاف والمنسوب " ، حيث جعل تحت كل باب من أبواب كتابه – كباب الليالي المضافة مثلا – عنوان "الاستشهاد " واستعرض تحته ما قيل في موضوع الباب.

وبالنظر إلى التعريفات والاستعمال في كتب النقد والبلاغة والأدب وغيره، فإننا نخلص إلى أن الاستشهاد عند القدماء عملية منهجية أو طريقة مخصوصة في التأليف مؤسسة على جلب أو استحضار شاهد منثور أو شاهد منظوم أو هما معا في سياق مبني على: شاهد، مستشهد به،

---

[1] ــ نهاية الأرب في فنون الأدب ــ 182/7، وينظر صبح الأعشى في صناعة الإنشاء 229/1.

[2] ــ نفسه 183/7

[3] ــ بلوغ الأمل في فن الوجل ــ ص:13.

[4] ــ ينظر جهود الطبري في دراسة الشواهد الشعرية ــ ص:69.

[5] ــ نفسه.

[6] ــ نفسه.

ومستشهد، ومستشهد له، ومتلق لهذا الشاهد، والجامع بين الاستشهاد والسياق علاقة انسجام ومشابهة طلبا إما للتمثيل أو للبيان أو للاستدلال والاحتجاج أو للتأكيد.

إنه قراءة وكتابة وإعادة إنتاج للكتابة تحول المبدع وتصهره في السياق، إنه نسق ثقافي تضافر على وضعه وفرضه المجتمع والدين والعرف العلمي واستيطيقا التأليف. وينبثق هذا النسق من ماض مؤسس على اعتبار كل مقول، مرتبطا مبدئيا بنص سابق، ومقدسا يمنحه الاستعمال والإعادة مشروعيته، وعلى اعتبار الوقتي ممثلا في القديم على جهة الاستعارة والاستحضار.

كما أن الحديث عن القدرة على الاستشهاد المؤشرة على الفحولة والمكانة العلمية هو في حقيقته حديث عن اختبار لذاكرة المستشهد، لأن الشاهد عموما هو ذاكرة أمة بكاملها يلخص حياتها على امتداد التاريخ العربي الإسلامي: دينيا وسياسيا واقتصاديا واجتماعيا وفنيا.

كما أن الحديث عن استحضارها ماض في وقتي — والحاضر ماض قادم — هو استبطان لتصور دائري للزمن يرى فيه المستشهد الماضي مجرد حاضر فات، أو حاضر موقوف ومعلق.

ثم إن الاستشهاد في النهاية هو كلام ينطق بما سكت المؤلف عنه عمدا أو طواعية، أو بما لم يستطع الإفصاح عنه. إنه محمول يتمم ما أمسك النص عن الجهر به، ويضيء ما قدمه مجملا أو مفصلا، غامضا مبهما أو خافت الوضوح.

2 ــ أنواع الشاهد:

تحديد نوع الشاهد رهين بعدة أمور تتصل بالزمن وبالمجال العلمي المستشهد فيه، وبالوظيفة أو بالوظائف والسياق.

فباعتبار عيار الزمن فإن الشاهد لا يخلو من أن يكون شاهدا جاهليا أو مخضرما أو إسلاميا أو محدثا(أو مولدا)، وهو تقسيم مستوحى من تقسيم البغدادي للشعراء في قوله: «وأقول: الكلام الذي يستشهد به نوعان: شعر وغيره. فقائل الأول قد قسمه العلماء على طبقات أربع:

(الطبقة الأولى): الشعراء الجاهليون، وهم قبل الإسلام، كامرئ القيس والأعشى.

(الثانية): المخضرمون، وهم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام كلبيد وحسان.

(الثالثة): المتقدمون، ويقال لهم الإسلاميون، وهم الذين كانوا في صدر الإسلام كحرير والفرزدق.

(الرابعة): المولدون، ويقال لهم المحدثون، وهم من بعدهم إلى زماننا كبشار بن برد وأبي نواس».[1] ويمكن إجمال أقسام الشاهد هذه في الشاهد القديم والشاهد المحدث أو الحديث، فيكون الشاهد المخضرم والإسلامي من ضميمات الشاهد الجاهلي.

ومثل هذا التقسيم المفصل في أوله، والمجمل في تاليه، محكوم بعيار الزمن من جهة، وكذا بعيار القدمة، بما يستبطنه من مقاييس عرفت عند العلماء القدامى من نظير البداوة والفصاحة... وباعتبار سند رواية الشاهد وإنشاده فهو إما شاهد مجهول القائل، أو شاهد منسوب لقائله، أو شاهد منسوب لراويه كأن يكون من العلماء الرواة. وهنا لا بد من التنبيه على بعض الأمور التي تخلق لدى البعض غموضا وإبهاما وأحيانا شكوكا في حقيقة الشاهد. ذلك أن إغفال المستشهد نسبة شواهده إلى أصحابها ليس دائما بسبب وضعه واختلاقه أو نسيان اسم قائله، إذ لابد من استحضار ظاهرة خطيرة وفاعلة في الحكم في مثل هذا الإشكال. فمن المعلوم أن القدماء كانوا كثيرا ما يملون مؤلفاتهم على الكتبة، وأن تعدد إملاءاتهم كان يدفعهم أحيانا إلى تدارك بعض النقص في مؤلفاتهم، فينسبون شاهدا لم يكونوا نسبوه في مؤلف لهم قبله. كما أن الوجهات التي كانوا يقصدونها بكتبهم لم تكن واحدة، فكلما كانت الوجهة إلى الخاصة كان ترك النسبة أمرا عاديا لأن الشعر معروف لدى هؤلاء بعكس ما توجهوا به إلى العامة. ولست أدعي أن هذا التعليل هو المفرد في ذا الباب، فقد يكون ترك النسبة لأمور غير هذه التي ذكرت.

وباعتبار نوع الحقل المعرفي الذي يرد فيه الشاهد، فإنه يأخذ نعوته منه، فيقال مثلا الشاهد النقدي، والشاهد البلاغي، والشاهد العروضي، والشاهد النحوي، والشاهد التاريخي...

وقريب من هذا تقسيمه بحسب مصادره التي استجلب منها، فيقال مثلا الشاهد القرآني، والشاهد الحديثي أو النبوي، والشاهد الشعري أو المنظوم، والشاهد النثري أو المنثور.

[1] ــ خزانة الأدب: 1/5 ــ 6.

وقد نجد لبعض المحدثين تقسيمات أخرى انطلاقا مما خبروه عن التراث الأدبي القديم من مثل الدكتور علال الغازي، فهو يقتسم الشاهد إلى ثلاثة أنواع:

- **شاهـــد تقني:** وهـــو « الذي يعتمده النحاة في تمرير قواعدهم ونكتهم النحوية »[1]

- **شـــاهد إبداعي:** وهو نوعان: « نوع يوظف لإثبات ظاهرة إبداعية تكون مقصودة بالاستشهاد عند المؤلف، كتعريف المؤلف بمصطلح بلاغي مثل المبالغة، والكناية، والاستعارة، وإتيانه بصور من الذكر الحكيم أو من الشعر للبرهنة على ظاهرة ذلك المصطلح في الإبداع[1]» ونوع « يكون في ذاته شاهدا إبداعيا، ولكنه في توظيفه يكون شاهدا معرفيا، أي أننا عندما نـــنظر في الشـــاهد وتوافـــره على مكونات الجمال والإبداع فيه، نجده قد حقق للفن ما هو مطلـــوب، ولكـــن السياق الذي ساقه فيه المؤلف يظل مع ذلك سياقا معرفيا »[2] . فالشاهد الإبداعـــي هو المقصود به لإثبات ظاهرة إبداعية جمالية، وهو أيضا ما قصد به إلى الاستدلال عـــلى مسألة علمية تنتمي إلى أحد علوم العربية كالعروض أو النحو أو اللغة أو البلاغة. ففي المســـتوى الأول ينظر إلى الشاهد في ذاته، وفي المستوى الثاني ينظر إليه من خلال غيره، وهو السياق العلمي الوارد فيه.

- **شاهد معرفي:** وهو « بالإضافة إلى ما سبق ذكره في الشاهد الإبداعي الموجه لخدمة قضية معرفية، يتعلق أساسا بأنواع كثيرة من النصوص العلمية البحتة التي يوثق بها المؤلف سياقه سواء ذكر مصدره أو ذكر صاحب المصدر فقط، أم لم يذكر.»[3].

ويبدو من تقسيم د. علال الغازي أن الشاهد الإبداعي يحتمل أن يكون معرفيا وأن يكون تقنيا.

---

[1] ـــ مناهج النقد الأدبي بالمغرب خلال القرن الثامن الهجري ـــ 2/ 457.

[1] ـــ منهجية التحقيق ـــ رحلة المحقق مع مواجهة النص من البداية إلى النهاية ص: 100م الدراسات الأدبية الجامعية بالمغرب منشورات كلية الآداب الرباط.

[2] ـــ نفسه.

[3] ـــ نفسه 100ـــ 101.

وبالإضافة إلى كل هذا فإنه لابد ـــ حين تحديد أنواع الشاهد ـــ من مراعـــاة ثلاثـــة جوانب أساسية تتصل بذات الشاهد وبوظائفه، وبالسياق الذي يرد فيه ،وبرتبته المكانية، قبل وبعد التعريف، أو الحكم، أو ما أشبه.

فبالنظر إلى الشاهد في ذاته يمكن تقسيمه إلى عقلي ونقلي، وإلى:" شاهد مباشـــر" وآخر" مؤازر(أو شاهد معية)".

فالمباشر ما جيء لإثبات، أو بيان حكم، أو ظاهرة أو مصطلح، والمؤازر أو الشاهد المعية ما كان القصد منه بيان لفظ أو معنى موجود في الشاهد المباشر قبله، فلا علاقة له بحكـــم ولا ظاهرة ولا مصطلح، إنه متداخل مع غيره من الشواهد الشعرية أو المنثورة المباشرة.

ويمكن أن يلحق بالشاهد المباشر شاهد مؤول له نسميه" المؤول المباشـــر". وهـــذا يرتبط بصورة معينة للشاهد المباشر هي صورة البيتين أو أكثر، يكون البيت الأول هو المقصود من الشاهد، أما البيت الثاني فليس له من وظيفة استشهادية سوى أنه يـــؤول البيـــت الأول، ويوضحه من جهة المعنى [1]، ويمكن جمع المصطلحين (المباشر والمؤول) في مصطلح واحد هو" الشاهد المزدوج" .

كما يمكن تقسيم الشاهد، باعتبار الذات، إلى" شاهد مطبوع"، وآخر "مـــصنوع" وآخر" متكلف"، وإلى" شاهد مستقل"، وهو ما استقل عن غيره من الشواهد المختلفة، فلم تقم بينه وبينها علاقة مباشرة ، بحيث يجوز الاقتصار عليه دون غيره في إثبات أو بيان حكـــم نقدي أو غيره مما سلف، وإلى"شاهد رديف" مشابه للمردوف قبله في الحكم لا في غيره، وهو الشاهد الذي يجيء معطوفا على شاهد سابق.

وفي بعد آخر يمكن الحديث عن شاهد مفترض أو مقدر لم يذكره المؤلف ولكننا نستشفه من كلامه، نسميه" الشاهد الغائب" في مقابل" الشاهد الحاضر". ومتى تشعب البحث، أمكن التوصل إلى ما بين هذين الشاهدين من مظاهر التماثل أو الاختلاف[2].

---

[1] ـــ يمكن الاستفادة هنا مما كتبه د. محمد مفتاح في "المفاهيم معالم"ـــ ص:87.

[2] ـــ ينظر في هذا الصدد ما كتبه ذ. يوسف أحمد في مقاله: " بنية الخطاب البلاغي"، مجلة دراســـات أدبيـــة لسانية ص: 60 عدد 7 – 1992.

ويقرب من هذا المقدر الغائب "الشاهد الممكن" وهو ما كان بالإمكان الاستشهاد بـه فصم عنه المؤلف وسكت وهذا مرتبط بأفق انتظار القارئ .

ولدى مراقبة الصور التي يلتبس بها الشاهد نقف على صورة متميزة في هذا الصدد، وهي التي يعرض فيها البيت أو الأبيات مدبجة في حكاية؛ إذ من المعلوم أن العديد مـن النـصوص الشعرية القديمة مرتبطة بحكاية أو حدث، وغالبا ما يكون النص الحكائي غير منسوب. ويمكن تسمية هذا النوع" شاهد الحكاية"، وهو بنيان مرصوص يتراص فيه نصان متلازمان: نـص حكائي وآخر شعري، قد يعتوره تغيير بنقص أو زيادة في متن الحكاية أو في رواية الـشعر أو فيهما معا، من مستشهد إلى آخر، ومن سياق استشهادي إلى غيره.

وإن البحث في دلالات الشاهد الحكائي من شأنه الكشف عن الأسباب الدافعة إلى إنتاج مثل هذا الشاهد بهذه الصورة، وعن العناصر المستفزة والباعثة على اختيار المستشهد (المؤلف) لهذا الشاهد الذي يمور بخطاب رمزي يستبطن منهجا ورؤية ونظرية، ويكـشفها في الوقـت نفسه، وبدلالات نسقية ثقافية تتمثل في بروز نسقين من التفكير النقـدي:نـسق الـشاهد الحكائي،ونسق المستشهد به(المؤلف)؛ وقد يتفق النسقان وقد يتعارضان وربما يصعد التقاطع النسقي بدخول نسق ثالث هو نسق صاحب الشاهد الشعري المنتظم أثناء الحكاية.

وقد استوحيت هذا المصطلح مما سماه البغدادي بسبب الشعر[1]، ومما ذكره الـسجلماسي عن شواهده المتلبسة بذكرمناسبة أو بمجلس لفظ ومصطلح. قال: « وقد أوردنا هذه الحكايـة بألفاظها ليكون الناظر يتخذها مثالا لهذا الكلي ينتزع من مادتها قانونا كليـا في اسـتخراج النسب في أجزاء القول » [2].

ويبدو أن الاعتماد على الحكاية ــ لأن فيها شعرا — منهج قديم شهر به المؤلفون القدماء [3] يقول د ــ مصطفى الشكعة عن هذا الملمح عند أبي بكر الـصولي (ت 335 هـــ) في كتابه: " أخبار أبي تمام": « وربما أتى الصولي بالقصة الطويلة المملة لا لشيء إلا لأن فيها بيتا

[1] ــ خزانة الأدب: 292/1

[2] ــ المتزع البديع: ص 594

[3] ــ انظر مثلا ما ذكره ابن قتيبة عن النعمان والمنخل والذبياني: 1/ 166ــ 167.

لأبي تمام جرى استحسانه من خلال سرد القصة وروايتها» [1]، فربط بين استحسان البيت وبين استحسان قصته وسردها.

أما إذا نظرنا إلى الشاهد باعتبار الوظائف والرتبة داخل رقعة الكتاب، فإنه ـــ باعتباره دليلا أو حجة أو غيرهما ـــ إما" شاهد نفي"، وإما"شاهد إثبات"، وهو في الحالتين معا يفيد العلم أو الظن بالعلم أو القبول أو الرفض أو الرجحان، وكل ذلك يبينه ويحدده السياق وجملة الكلام أو التأليف.

والشاهد المثبت أو النافي إما سابق على الحكم أو التعريف أو غيرهما، وإما لاحق عليها؛ فإن سبق دل: إما على أصل الرؤية والحكم والتعريف... وإما على دليل وحجة، وإما على معيارية تحجر على كل نظم يتبعه على مدى التاريخ الشعري العربي.

أما إذا لحق فهو إما مثال أو تمثل، أو دليل، وحجة، يعري كل ذلك السياق، ويكشفه منطوق كلام المؤلف ومنطقه.

والشاهد في كل هذا إما أن يتخذ صبغة الكلية، فيكون معبرا عن كل الشعر فكأننا بإزاء تجربة مندمجة في شاهد أو شواهد معدودة، وإما أن يسلك به سبيل البعضية فيجسد الشاهد ملمحا شعريا بعينه إما نموذجا لتجربة فردية ذاتية، أو لتجربة جماعية جزئية (مدرسة شعرية) لا تستوعب التجارب الشعرية العربية بكاملها، أي أن الشاهد إما عام وإما خاص، والخاص إما جماعي وإما خاص الخاص هو الفردي.

والشاهد الدليل والحجة والبرهان قد تكون دلالته على الحجية والاستدلال صريحة في كلام المؤلف، وقد تكون مضمرة تستفاد من السياق، ومثل ذلك يقال عن الشاهد المثال، وتكون وظيفة الشاهد هنا إما الإثبات بالكل وله عدة صور كالبيت المقلد أو اليتيم، والبيتين، والمقطعة، والقصيدة،وإما الإثبات بالجزء وله صور عدة كذلك هي الشطر، وبعض الشطر، والبيتان يراد منهما واحد، وما تعدى ذلك ولم يرد به إلا واحد ،والقصيدة يراد منها بيت أو اثنان أو ثلاثة.

وما قيل عن شاهد الإثبات يقال عن شاهد النفي مع التنبيه إلى أن نماذج بعض التقسيمات السالفة ـــ كالنفي بجزء الشطر ـــ لا تطرد في جميع المصادر القديمة.

[1] ـــ مناهج التأليف عند العلماء العرب ، ص: 260.

3 ــ وظائف الشاهد:

لا يمكن النظر إلى الشاهد من حيث وظائفه دون مراعاة اختلاف أجناس الخطاب، ودون الانتباه إلى التمايز الخطير بين الحقول المعرفية على عهد العلماء القدماء، فلا يعقل لمحص أو محصل – بتعبير الأصفهاني – أن ينظر للشاهد في سياق التفسير وعلم الحديث والنحو نظرته إليه في مجالات الشعر والنقد والبلاغة. فالذي يتأمل بعين فاحصة وآلة ممحصة في كتابات أمثال ابن قتيبة والطبري يعلم علم اليقين أن العلماء القدامى لم يكونوا ينظرون نظرة مساواة بين كل الحقول المعرفية الموجودة في عصرهم من حيث منهج التأليف والتنظير. ولهم الحق في ذلك فلقد قامت جهود القدماء في تدوين العلوم وهم واعون بأن المرحلة مرحلة تقعيد وإرساخ للثوابت في اللغة والنحو والتفسير وشرح الحديث النبوي الشريف، فلم يكن مسموحا لهم أن يتساهلوا في تحقيق ذلك، فكان الحزم والصرامة ــ من خلال وضع معايير ومقاييس للاستشهاد ــ أمرا حتميا ومنطقيا، لذلك رفعت شعارات من مثل الأعصار لا الأشعار،والبداوة لا التحضر، والطبع لا الصنعة، في إشارة إلى مقاييس ثلاثة في الاستشهاد هي الزمان ويراد به زمن الاحتجاج المقبول، والمكان البعيد عن المراكز الحضرية التي تشهد اختلاط الأجناس البشرية واختلاط الألسنة ما يجعل اللغة عرضة للدخيل، ثم الفصاحة على شرط مذاهب القدماء، وإن لم يلتزموا بهذه المقاييس النظرية عمليا بل وجدنا من العلماء من خرق هذا الإجماع نظريا وعمليا كالزمخشري في" الكشاف" برأيه المشهور في أبي تمام واستشهاده بشعره في تفسير القرآن الكريم.

ومثل تلك المقاييس ــ على الرغم من مبرراتها التاريخية ــ قد ضيعت على الدارسين قديما وحديثا فرصة الوقوف على نصوص مارقة خرجت على نظريات علماء زمن التدوين ومقاييسهم، ومن تقيلهم من العلماء المتأخرين عنهم .

إن للشاهد وظائف جمة يمكن تقسيمها إلى وظائف عامة وأخرى جزئية خاصة.

فأما الوظائف العامة فكالوظيفة الدينية إذ لا يخفى على الدارس للتراث العربي القديم، ولسياقه الثقافي الذي حكم إنتاج العديد من التآليف العربية، أن الحاجة إلى الشاهد ــ وخاصة الشعري منه ــ كانت لضرورة دينية، فالاستشهاد ــ في بعده الديني ــ كان احتجاجا للقرآن

في مرحلة أولى من مراحل الثقافة العربية الإسلامية، قبل أن ينتقل الحال من مرحلة الاحتجاج للقرآن إلى الاحتجاج بالقرآن.

ومنها أيضا الوظيفة النفسية والتربوية باعتبار العناية بالشاهد ـــ أداة ومرجعا لغويا ودلاليا ـــ وبالاستشهاد ـــ منهجا في التأليف ـــ هي محاولة للتعبير عن الإحساس القوي بالرغبة في الانتماء إلى اللغة العربية وإلى مجتمعها العربي، كما هي عملية دفع نحو خلق وترسيخ وسيلة اتصال موَحدة وموِحدة من جهة ثم تعميم هذه الوسيلة من خلال اعتمادها ركنا في الكتابة باعتبارها نتيجة للأولى من جهة ثانية.

وأما الوظائف الجزئية الخاصة فهي متعددة ومختلفة أهمها الاستدلال أو الاحتجاج ثم الإيضاح أو التمثيل، فالشاهد يكون دليلا حيث يساق في سياق يروم منه المستشهد إثبات رؤية أو قاعدة أو حكم على وجه القطع والثبوت، كما هو الحال في مجالات الشرع والنحو واللغة ـــ مثلا ـــ .

وارتباط الشاهد بالدليل حدد لا يمتنع عليه فصل أو باب أو قاعدة من علم اللغة والنحو، والمستقرئ لمصادر النحو العربي يقضي ـــ بلا شك ـــ بقيام علاقات بين الشاهد وبين مصطلحات تصعد في الذهن دلالات الإثبات والتدليل، كالبرهان والحجة. وهذا القضاء أمر غير مختص بعلم اللغة والنحو دون غيرهما، بل يتعداهما إلى مؤلفات أدبية ونقدية وبلاغية، حتى لقد أضحى الشاهد ـــ في باب القص والحكي ـــ ضربا من البرهنة والاحتجاج، والغاية منه مقامئذ البعث على الإيمان بالمحكي، والتصديق به. يقول د.عبد الحميد إبراهيم:« فكأن القاص حين يذكر الشعر، فقد أورد الدليل على صدق كلامه،والبرهان على واقعية خبره » .[1]

ولقرب هذه المصطلحات السابقة من بعض، وقربها من الشاهد، لم يجد المؤلفون حرجا في استعمالها جميعا بنفس المعنى، ولا في اعتبار بعضها مرادفا لبعض، مثلما كان يفعل الجاحظ في مصنفاته، يقول د.عبد الرحيم الرحموني: « وقد ترى بعض هذه المترادفات متتابعة في مكان واحد، كأن يقول:"وفي كذا ... دليل وشاهد وبرهان على... كذا"، أو أن يقول: "والدليل

[1] ـــ قصص العشاق النثرية، ص: 228.

على ذلك والشاهد الصادق والحجة القاطعة أن ... " كما يمكن أن يأتي المصطلح الواحد منها بدل الأخرى وهذا هو الأعم الغالب فيما أشرنا إليه من الحالات»[1].

بل إن تأصيل العلاقة بين مصطلح الشاهد وبين بعض ما ذكر من مصطلحات، من شأنه توليد علاقات بينه وبين متعلق ببعض ما ذكر، كالحديث عن أن قيام علاقة بين الشاهد والحجة ينشئ علاقة مخلفة من تلاقح مصطلح الحجة ومصطلح الرواية، ذلك « أن استخدام مصطلح الرواية في مجال الشعر واللغة، له ظل من معنى الحجة، لأن الشاعر الحجة هو من يروى لـــه، وغير الحجة من لا يروى له: "فالشعر الحجة تحسب روايته احتجاجا بمعنى أن راويته ثقـــة في حجيته"وهذا ما يفسر القولة المشهورة الواردة عن أبي عمرو بن العلاء: "لقد حسن هذا المولد حتى همت أن آمر صبياننا بروايته". »[2]، فبان بهذا أن الشاهد هو أيضا رواية بل ضربا مـــن الرواية، وهذه فرضية لا تحتاج إلى استدلال، لأن كل استشهاد هو في أصله رواية في مرحلـــة أولى، ثم هو إثبات، أو غيره، في مرحلة ثانية، يقعان معا في وقت واحد هـــو لحظـــة ســـياق الاستشهاد.

وتتنامى دلالات الشاهد الاصطلاحية، باعتبار سياق الشاهد ووظائفه، حـــتى تـــرادف الشرح والتفسير؛ ففيما يرويه السيوطي في" الإتقان" عن أبي عبيد في فضائله، قال « حـــدثنا هشيم عن حصين بن عبد الرحمن عن عبد الله بن عتبة عن ابن عباس أنه كان يـــسأله عـــن القرآن، فينشد فيه الشعر. قال أبو عبيد: يعني كان يستشهد به على التفسير»[3]، فيتـــبين أن التفسير أو الشرح هما استشهاد في الآن نفسه، فبينهما علاقة جدلية، وتلازم لا انفصام لـــه، فعبارة « يستشهد به على التفسير» معناها بالضرورة أن المفسر به شاهد، وأن الاستشهاد جزء من التفسير. والاستشهاد بالشعر لغاية تفسير مبهم من القرآن، وبيان غامضه، أمـــر فـــاش في الدرس الإسلامي القديم في كتب اللغة والنحو والتفسير والنقد والبلاغة، وهو منهج شـــهر في الناس، وآمنوا به، وانتحوه. وكان أول من أسس هذا المنهج عمر بن الخطاب، فقد ثبت أنـــه

---

[1] ــ مفهوم الشاهد وأهميته عند الجاحظ ص: 261 مجلة كلية الآداب ــ فـــاس ــ ع خـــاص 4 ــ س 1409 ــ 1988.

[2] ــ جهود الطبري في دراسته الشواهد الشعرية . ص 70.

[3] ــ الإتقان في علوم القرآن. 55/2.

كان يستعين بالشعر على فهم معاني القرآن حتى إذا لم يحضره شيء منه سأل الناس، فذكر أنه سأل يوما ـــ وهو على المنبر ـــ عن معنى التخوف في قوله تعالى: « أو يأخذهم على تخوف» فقام شيخ من هذيل فقال: هذه لغتنا . التخوف: التنقص. فقال: هل تعرف العرب ذلك قال: نعم. قال شاعرنا أبو كبير يصف ناقته:

تخوف الرحل منها تامكا قردا كما تخوف عود النبعة السفن[1]

لكن ابن عباس، باعتباره الأب الروحي لهذا المنهج في التفسير، سعى وكده في الاحتماء بالشعر العربي لخدمة تفسير القرآن، فيما اشتهر بمسائل ابن الأزرق[2]، حتى صار مدرسة قائمة بذاتها، تعتمد الشاهد الشعري أداة للتفسير، وتجعل من الاستشهاد مصدرا للمعرفة وحفظا؛ لها تلامذتها الأوفياء لابن عباس ومنهجه، في القرنين الأول والثاني، نجد منهم عكرمة، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة بن دعامة السدوسي، ومقاتل بن سليمان.

وقد يرادف الشاهد وظيفيا المُتَمَثَّلَ به، حيث يصبح الاستشهاد تمثلا. وحقيقة التمثل المراد هنا لها مدلولان: الأول بمعنى الاستحضار والتذكر، استحضار المشابه في الموقف أو الحدث أو المسألة أو غير ذلك، وتذكر النموذج الحاصل في زمن قبلي، على جهة الاستعارة كتمثل الرسول صلى الله عليه وسلم ـــ وهو يمشي بين القتلى يوم بدر ـــ ببعض قسيم الشاعر. يقول: « نفلق هاما » وخلفه أبو بكر الصديق يتمم البيت:

... من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما [3]

ومما يدل على هذا المعنى ما نقله المسعودي في "مروج الذهب "عن الحجاج أنه« سأل سيرة بن الجعد:هل تروي الشعر؟ قال: إني لأروي المثل والشاهد. قال الحجاج: المثل قد عرفناه، فما الشاهد؟ قال اليوم يكون للعرب من أيامها عليه شاهد من الشعر، فإني أروي ذلك الشاهد» [4].

---

[1] ـــ تفسير البيضاوي: 182/3.

[2] ـــ ينظر: نحو منهج إسلامي في رواية الشعر ونقده، ص: 186ـــ 189.

[3] ـــ مختصر تفسيرا ابن كثير: 1/ 169.

[4] ـــ مروج الذهب: 3/ 136.

فالشاهد برأي ابن الجعد هو كل ما يتمثل به من أبيات مخصوصة نظمت في أيام مخصوصة، لغايتي الذكرى والاستحضار.

أما الثاني فبمعنى التغني، وتحلية الكلام، يجيء الشاهد من خلاله متلبسا، لا بوظيفة الإثبات أو غيرها من الوظائف المذكورة آنفا، بل بوظيفة التمثل الهادف إلى خلق نوع من التسلية، وكسر رتابة السرد الطويل للأخبار والأحداث.

وإذا كان الشاهد يكشف عن جميع هذه المفاهيم والوظائف، فإنه لزم الاحتراز في باب الاستشهاد بالشعر، ووجب التفريق بين الشعر الوارد في سياق الاستشهاد، وبين الوارد في الدواوين أو الشعر موضوع الشرح في شروح الدواوين، خلا ما سيق فيها منه شاهدا على شرح الشعر المقصود بالشرح العام. فلا المختارات ولا المجموعات ولا الدواوين تسمى شواهد إلا أن تجئ جزئياتها مقصودا منها الاستشهاد أو التمثيل. وهذا فرق واضح ودقيق وجب التنبيه عليه لأننا وجدنا من لا يفرق بين النوعين مع أن الفرق بينهما بين وظاهر، فالأولى مشروع شواهد والثانية شواهد بذاتها.

إن الشاهد بعد هذا السفر الاصطلاحي، وبناء على ما تقدم من تعريفات، ومن خلال استقراء مجموعة كبيرة من المؤلفات القديمة عمل فردي وجماعي موروث أو معاصر للمستشهد به؛ رسخ في الذاكرة أو سجلته صحائف ودواوين، ومجموعات ومختارات، كان مستعملا أو مقبرا في غياهب البوادي، أو في بيوتات القرى، أو راكدا في صدور العباد، أو سجينا في الرسائل والإخوانيات، فنفض المستشهد الباحث عنه الغبار، وبعثه تدب فيه الحياة في إطار منهج أو مشروع يستقرئ، ويستغرق الأسلوب، والبديع، والصناعة، واللغة، والعلوم المختلفة.

هذا البعث أو الإحياء قد لا يخلوان من الذاتية، والتأويل المقبول أو المستكره.

فهرس المصادر والمراجع

أ ــ المصادر:

ــ إتحاف الأمجاد فيما يصح به الاستشهاد،محمد شكري الألوسي، تحقيق: عدنان عبد الرحمن الدوري،مطبعة الرشاد،بغداد،العراق ــ 1302هـ. ــ 1976م.

ــ الإتقان في علوم القرآن، السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة المشهد الحسيني،القاهرة، مصر ــ 1967م.

ــ بلوغ الأمل في فن الزجل،ابن حجة الحموي(837هـ)، تحقيق: د ــ رضا محسن القريشي، دمشق ــ سوريا ــ 1974م.

ــ تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي محب الدين أبو الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي (ت1205هـ)، المطبعة الخيرية، المحمية، مصر ــ الطبعة الأولى ــ 1306هـ.

ــ تفسير البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر الشيرازي، مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع،بيروت ــ لبنان(د ــ ت).

ــ تفسير القرآن، للصنعاني عبد الرزاق بن همام، تحقيق:د. مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد،الرياض ــ المملكة السعودية ــ الطبعة الأولى ــ 1410هـ.

ــ تهذيب اللغة، الأزهري أبو منصور محمد بن أحمد(ت370هـ)، تحقيق: أبوالفضل إبراهيم ، مراجعة: علي البجاوي، الدار المصرية، القاهرة ــ مصر ــ (د ــ ت).

ــ التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي محمد عبد الرؤوف، تحقيق: د ــ محمد رضوان الداية، دار الفكر المعاصر،دمشق ــ سوريا ــ الطبعة الأولى ــ 1987م.

ــ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، حققه وعلق حواشيه: محمود محمد شاكر، دار المعارف، مصر ــ (د ــ ت).

ــ الجامع لأحكام القرآن،القرطبي أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري،قدم له:خليل محيي الدين الميس، راجعه: صدقي محمد جميل،وخرج حديثه وعلق عليه: عرفان العش،دار الفكر ــ بيروت ــ لبنان ــ 1415هـ ــ 1955م.

- جمهرة اللغة، ابن دريد أبو بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري(312هـ)،تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين،بيروت ــ لبنان ــ الطبعة الثالثة ــ 1404هـ ــ 1987 م.

- خــزانة الأدب ولب لسان العرب، البغدادي عبد القادر بن عمر(ت1093هـ)، تحقيق وشرح: د. محمد عبد السلام هارون، مكتبة الغانجي، القاهرة مصر ــ الطبعة لثانية(دت).

- الشــعر والشعراء، ابن قتيبة عبد الله بن مسلم الدينوري(276هـ)، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر،دار الحديث، القاهرة ــ مصر ــ الطبعة الثانية ــ 1418هـ ــ 1989م.

- صــبح اللأعشى في صناعة الإنشا، القلقشندي أحمد بن علي، تحقيق: د. يوسف علي طويل، دار، الفكر بيروت ــ لبنان ــ الطبعة الأولى ــ 1987م.

- الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية، الجوهري إسماعيل بن حماد(ت393هـ أو398هـ)، تحقــيق: أحمــد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين،بيروت ــ لبنان ــ الطبعة الأولى ــ 1402هـ ــ 1982م.

- القــاموس المحــيط، الفيروزابادي مجد الدين محمد بن يعقوب(ت817هـ)، دار الفكر، بيروت ــ لبنان ــ 1403هـ ــ 1983م.

- كتاب الصناعتين(الكتابة والشعر)، العسكري أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل(ت 395هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، صيدا بيروت ــ لبنان ــ 1406هـ ــ 1986م.

- كشــاف اصــطلاحات الفــنون، التهانوي محمد علي الفاروقي، حققه: لطفي عبد البديع،ترجم النصوص الفارسية: عبد النعيم محمد حسنين، راجعه: أمين الخولي، مكتبة النهضة المصرية ــ مصر ــ 1382هـ ــ 1963م.

- كتاب العين، الفراهيدي أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد، تحقيق: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلالــ(د. ت).

- لسان العرب، ابن منظور الإفريقي المصري أبوا لفضل جمال الدين محمد ابن مكرم، دار صادر، بيروت ــ لبنان ــ (د. ت).

- المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد(385هـ)، (د. ط)، (د. ت).

- مختصر تفسير ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن كثير(ت747هـ)، اختصره وحققه: محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت ــ لبنان ــ 1981م.

- مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي علي بن الحسين(346هـ)، تنقيح وتصحيح: شارل بلا، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ــ لبنان ــ 1974م.

- المعـــاني الكبير في أبيات المعاني، ابن قتيبة، تحقيق: د. كرنكو، دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ لبنان ــ الطبعة الأولى ــ 1403هـ ــ 1984م.

- مقاييس اللغة، أبو الحسين بن فارس بن زكرياء، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر ــ 1399هـ ــ 1972م.

- المقنع البديع في تجنيس أساليب البديع، القاسم السجلماسي أبو محمد(ت711هـ)، تقديم وتحقيق: د. علال الغازي، مكتبة المعارف،الرباط ــ المغرب ــ الطبعة الأولى ــ 1401هـ ــ 1980م.

- نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب(ت733هـ)، نسـخة مصـورة عن طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ــ المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر(د. ت).

ب ــ المراجع:

ــ جهـود الطـبري في دراسـة الشـواهد الشـعرية في"جامع البيان عن تأويل آي القرآن"(دراسة لغوية أدبية في تفسير القرآن)، محمد المالكي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ــ ظهر المهراز، مطبعة المعارف الجديدة،الرباط ــ المغرب ــ 1994م.

ــ قصص العشاق النثرية، عبد الحميد إبراهيم، دار الثقافة، القاهرة ــ مصر ــ 1972م.

ــ المفاهيم معالم(نحو تأويل واقعي)، محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ــ المغرب ــ الطبعة الأولى ــ 1999م.

ــ مـناهج التأليف عند العرب(قسم الأدب)، د. مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت ــ لبنان ــ الطبعة السادسة ــ 1991م.

— مناهج النقد الأدبي بالمغرب خلال القرن الثامن الهجري، أطروحة لنيل دكتوراه الدولة،إنجاز: علال الغازي، إشراف: د ـ عباس الجراري، كلية الآداب ـ الرباط ـ السنة الجامعية: 1985م ـ 1986م.

ـ نحو منهج إسلامي في رواية الشعر ونقده، مصطفى عليان، دار البشير، عمان ـ الأردن ـ الطبعة الأولى : 1412ه ـ 1992م.

ج ـ المجلات:

ـ مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية فاس ـ عدد خاص ـ 4 ـ سنة 1409ه ـ 1988م.

مقال: "مفهوم الشاهد وأهميته عند الجاحظ ص: 261 ".

ـ مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط،سلسلة ندوات ومناظرات رقم:18 تحت عنوان"الدراسات الأدبية الجامعية بالمغرب سنة 1991م":

مقال: "منهجية التحقيق،رحلة المحقق مع مواجهة النص من البداية إلى النهاية" لعلال الغازي.

— مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية العدد7 سنة 1992م:

مقال: " بنية الخطاب البلاغي وسلطة النص الغائب ـ القراءة بالمماثلة" لأحمد يوسف.